الآثار الايوبية
في دمشق

للدكتور أسعد طلس
عضو المعهد الفرنسي بدمشق

اذا نحن استثنينا الجامع الاموي ، وبعض أبواب المدينة ، وبعض كنائسها ، لم نجد في دمشق آثاراً ذات شأن قبل العصر الايوبي ، الذي تزخر دمشق بآثاره وتفخر ، ولا نعرف كتاباً عربيًّا عني بدراسة هذه الآثار من الناحيتين العلمية والفنية . أما باللغات الاجنبية فانك واجدٌ كتباً كثيرة وأجدرها بالذكر ما يأتي :

١ — آثار دمشق التاريخية : (بالفرنسية) للاستاذ الدكتور جان سوفاجه J. Sauvaget عضو المعهد الفرنسي بدمشق سابقاً والاستاذ بجامعة باريس حاليًّا واسم كتابه Les Monuments Historiques de Damas وهو كتاب في ١١٦ ص بالقطع المتوسط استقصى فيه آثار دمشق التاريخية من أيوبية وغير أيوبية ، مصحوبة بتفسيرات تاريخية وملاحظات فنية تعين من يريد الاطلاع على تاريخ الفن المعماري الاسلامي في هذه المدينة . وقد أعان القارىء بكثير من الرسوم والمخططات والقطاعات التي تيسر له عمله . والكتاب من مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٣٢

٢ — الآثار الايوبية في دمشق : (بالفرنسية) وهي مجموعة يصدرها المعهد الفرنسي بدمشق باسم Les Monuments Ayyoubides de Damas صدر منها الجزء الاول في ٥٠ ص بالقطع الكبير مع ١١ لوحة فتوغرافية طبعت بباريس سنة ١٩٣٨ بعناية E. de Beaumont وقد بحث فيه عن « قبة صفوة الملك » و « دار الحديث النورية » و « قبة تُرْخشاه وبهرامشاه » و « المدرسة الجهاركية » . وعما قليل ، ينشر القسم الثاني وسينتظم البحوث الآتية : « المدرسة الريحانية » و « المدرسة العذراوية » و « المدرسة العزّية البرانية » و « المدرسة العادلية الكبرى » و « ثلاثة حمامات ايوبية » . والقسم الثالث ستنشر فيه « قبة البدري »

٣ — كتاب دمشق Damaskus : (بالالمانية) للمستشرقين الالمانيين K. Wulzinger و C. Watzinger وهو كتاب ضخم في مجلدين ، أولهما في دمشق وآثارها قبل الاسلام

وثانيهما في دمشق في الاسلام . والكتاب جليل الفائدة على أغلاط كثيرة فيه . وهو مطبوع ببرلين وليبزيغ سنة ١٩٢٤

على هذه المصادر العلمية الثلاثة سنعتمد في سلسلة مقالاتنا هذه عن آثار دمشق الايوبية ونخص بالاعتماد منها كتاب « الآثار الايوبية في دمشق » لاتقانه الشديد ، وحسن بحثه ، وصبغته العلمية الصحيحة كما أننا سنعتمد من الناحية التاريخية على طائفة من المصادر نخص منها بالذكر : تاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ ابن كثير ، وكتاب تنبيه الطالب والدارس في أخبار الآثار والربط والمدارس للنعيمي (مخطوط) ، ومساجد الشام لابن عبد الهادي (مخطوط وقد عنينا بنشره وسيتم طبعه عما قريب) ومنادمة الاطلال ومسامرة الخيال لعبد القادر بدران (مخطوط) وخطط الشام للعلامة محمد بك كرد علي

قبة صفوة الملك السلجوقية

لم يبقَ اليوم من هذه القبة أثر ، وقد كانت تقع في حديقة غربي المدينة في الشارع المشهور بزقاق الصخر حيث تقوم الآن بناية « سينما الروكسي » أمام الخانقاه اليونسية المشهورة بجامع الطاووسية ، غير بعيدة عن مدرسة التجهيز والمدرسة العزية البرانية . وقد كانت باقية الى ربع قرن خلا

﴿ تاريخها ﴾ : يذكر المستشرق الفرنسي M. Van Berchem في مجموعة الكتابات الأثرية Coll. Caruet ٢/٤ انه كان على بابها رخامة مساحتها (٢٠٠ × ٤٠ سنتيمتراً) مكتوب عليها أربعة أسطر بالقلم الكوفي المزهر الدقيق الجميل ما نصه (١) « (١) بسملة أمر بعمارة هذا المشهد والتربة فيه (وقد حرفها أصحاب كتاب Repertoire الى « قبة » وهو خطأ) الخاتون الأجلة السيدة صفوة الملك عز نساء العالمين (٢) والدة الملك دقاق بن تاج الدولة ووقفت عليه جميع البستان المجاور لذلك وجميع البستان الذي بقرية كفاية المعروف قديماً (٣) . . . . الله العامي (؟) وجميع المعصرة وجميع البيوت وجميع الدار المجاور (كذا) جميع ذلك البستان المذكور وقفاً مؤبداً محرماً لا يباع ولا يشترى ولا يبادل به يصرف عليه (٤) .... ذلك وقفه الصحه (؟) وأجرة المقرر منه على ما نسخ في كتاب الوقف دائماً أثابها الله ووفقها و ل (لعنة الله على من ...) على ذلك ، و (ابدله وذلك في سنة اربع وخمسمائة »

أما صفوة الملك فهي السيدة الجليلة زوجة تاج الدولة تتش بن الب ارسلان السلجوقي ، مات زوجها فتزوجت الاتابك الامير ظهير الدين طغتكين مربي ولدها الامير دقاق . وقد

---

(١) نشر هذا الكتاب أصحاب كتاب Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe ج ٨ ص ٨٦ وقالوا انه موضوع فوق باب المدرسة الظاهرية وهو خط

كانت سيدة جليلة محنكة ، أدارت دمشق وأعمالها ادارة حسنة بعد زوجها الاول ، هي وزوجها الثاني الاتابك ومات سنة ٥١٣ . واليك نص مؤرخ دمشق في تلك الفترة أبي يعلى حمزة القلانسي «... وعاد ظهير الدين أتابك منكفئاً الى دمشق عقيب هذا الظفر ودخلها يوم السبت لليلة بقيت من جمادى الاولى سنة ٥١٣ فصادف الخاتون صفوة الملك والدة شمس الملوك دقاق ابن السلطان تاج الدولة تتش ابن السلطان الب ارسلان قد سكمها المرض وطال بها وقد أشفت على الموت وكانت لقدومه متوقعة والى مشاهدته متطلعة فأدركها وشاهدها وسمع مقالها وقبل وصيتها وأقامت القليل وتوفيت الى رحمة الله ومغفرته ورضوانه بين صلاتي الظهر والعصر من يوم الاحد آخر جمادى الاولى سنة ٥١٣ ودفنت عند ولدها في القبة التي بنتها على القلعة المطلة على الميدان فلقد كانت من النساء المصونات المحبة للدين والصدقات والتنزه عن الظلم بطلب الخيرات [1]

واما دقاق ابنها فهو الامير شمس الملوك دقاق بن تتش السلجوقي ملك دمشق واعمالها من سنة ٤٨٨ — بعد وفاة أبيه وكان المدبر لاموره الامير طغتكين اتابك بوصية من أبيه [2] — الى سنة ٤٩٧ وفي هذه السنة عرض له مرض تطاول به ووقع معهُ تخليط الغذاء وانقطع الرجاء من حاليته فتقدمت والدته الخاتون صفوة الملك اليه أن يوصي بما في نفسه ولا يترك أمر الدولة سدًى فأوصى للأمير ظهير الدين طغتكين بحضانة ولده الصغير تتش الى أن يكبر وتوفي رمضان تلك السنة . هذا ما يقوله المؤرخ ابن القلانسي [3] ويذكر ابن عساكر ان دقاق ولي إمرة دمشق بعد أبيه سنة ٤٨٧ وديسهو وطغتكين المعروف بابي بكر زوج ام الملك دقاق . ثم حصل له مرض تطاول به فمات في رمضان سنة ٤٩٧ فغلب طغتكين على دمشق وقيل ان دقاق مات سنة ٤٩٣ وان امه دست له جارية فسمتهُ في عنقود عنب معلق في شجرته تقبتهُ مارة فيها خيط مسموم [4] . وعندنا ان هذه القصة اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة لامور منها (اولاً) ان دقاق كان على اتفاق مع زوج امه طغتكين في حياته وحين وفاته ولولا ذلك لما أوصى اليه بابنه الصغير تتش (ثانياً) ان ابن القلانسي لم يذكر شيئاً من ذلك وهو اقرب عهداً بالعصر من ابن عساكر (ثالثاً) ان ابن عساكر ذكر الحقيقة تاريخية اولاً ثم عقب عليها بالقصة ذاكراً اياها بصيغة التضعيف . وقد نقل هذه القصة ايضاً النعيمي في كلامه على الخانقاه الدقاقية والكنه مؤرخ متأخر لا نعتمد على ما يرويه عن غير عصره

ومن قصورها من قبة دقاق هي : تقيد الرخامة التي كانت على بابها ان قبة صفوة الملك بنيت سنة

---

(١) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص : ٢٠١ طبع H. F. Amedroz بمطبعة اليسوعيه ببيروت سنة ١٩٠٨ (٢) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص : ١٣١ (٣) المصدر السابق ص ١٤٤
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٥ ص ٢٤٧

٥٠٤ هـ كما تفيد انه كان الى جانبها مشهد. وتفيد عبارة ابن القلانسي ان القبة كانت على القلعة المطلة على الميدان الاخضر — المعروف الآن بالمرج الاخضر — وتفيد عبارة ابن القلانسي ايضاً ان صفوة الملك دفنت عند ولدها فهل دفنت هي وابنها في قبر واحد وتحت قبة واحدة أم كان هناك قبران وقبتان ؟

يرى الاستاذان سوفاجه وايكوشار ان هناك قبرين وقبتين لان دقاق مات قبل امه ولا يمكننا ان نفرض ان جثمان الام وضع فوق جثمان الابن لأن تاريخ بناء القبة كان سنة ٥٠٤ أي بعد موت دقاق بسبع سنوات . ثم ان المكتوب على الباب ينص على ان هذا المعهد كان يحتوي على قبة القبر (التربة) وعلى المشهد . والمعروف ان قبة دقاق كان الى جانبها مسجد كبير كما يقول ابن عساكر في الفصل الذي عقده عن مساجد دمشق . واليك نص عبارته «... (ومسجد) آخر كبير في قبة قبر الملك دقاق المعروف بقبة الطواويس في الرباط الذي بنته خاتون أم دقاق [1] » وليس في قبة صفوة الملك شيء من ذلك — كما وصفها من رآها — ولم يكن الى جانبها اثر لمسجد كبير [2] . ونقول إن المؤرخين متفقون على ان قبر دقاق المشهور باسم قبة الطواويس اوخانقاه الطواويس او الطاووسية كان يقع بين المدرسة العزية البرانية — وهي إمام حديقة التجهيز اليوم — وبين الخانقاه البوليسية المعروفة اليوم بجامع الطاووسية . وهذه الاوصاف تنطبق تمام الانطباق على اوصاف قبة صفوة الملك كما يصفها الاستاذان سوفاجه وايكوشار واصحاب كتاب Damaskus . فهل كانت قبة صفوة الملك الى جانب قبة ابنها دقاق بحيث تكون الاوصاف واحدة ؟ ثم ان الرخامة تنص على انهُ كان الى جانب قبة صفوة الملك مشهد ، والمؤرخون يذكرون انهُ كان الى جانب قبر دقاق مسجد كبير ، فهل المشهد والمسجد الكبير شيء واحد ؟ ان الذين رأوا قبة صفوة الملك قبل اندثارها لا يذكرون لنا انهُ كان الى جانبها آثار مسجد كبير . أفيمكننا بعد هذه الاسئلة كلها ان نقول انهُ كان الى جانب قبة صفوة الملك ومشهدها قبة ابنها دقاق ومسجده ؟ الحق انهُ لا يمكن القطع بذلك فان النار التي شبّت في تلك الناحية سنة ٦٢٦ وأصابت الخانقاه الطاووسية كما يذكر النعيمي ، ذهبت بكثير من معالم تلك المعاهد ثم إن كرّ الزمن يمنعنا من القطع بشيء

﴿وصفها﴾ : بنيت قبة صفوة الملك في بقعة مستطيلة من الارض طولها ٩٫٣٠ المتر وعرضها ٦٫٤٥ المتر وكان لها جبهة حجرية شمالية حسنة البناء فيها الباب ومن فوقه الرخامة ويقابل هذه الجبهة جبهة جنوبية فيها شباك ضخم يقابل الباب . وفي الطابقين الشرقي والغربي شباكان كبيران من فوقهما كوة . وفي وسط بقعتها المستطيلة غرفة مربعة الشكل من فوقها قبة والى

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٩ : ٢٢٨

(٢) انظر Les Monuments Ayyoubides ١ / ٨

جانبي الغرفة المربعة غريفتان مستطيلتان من فوق كل واحدة منهما نصف قبة

﴿ بناءها ﴾ : كانت حيطانها مبنية بحجارة صغيرة غير متقنة الصنع او بمواد أخرى مرصوفة رصفاً غريباً ترى فيها الحوائل والصوان والمرمر الابيض وغير ذلك كما ترى القدد الخشبية تصل بين الجزء والجزء من أقسام الحائط

وأما الأقواس او الحنايا والقباب فمن الآجر المطبوخ وهو نوعان (الاول) حجمهُ ٢٣ × ١٥ × ٤ سنتيمترات و (الثاني) ٢٦ × ١٩ × ٦ سنتيمترات

وأما نصفا القبتين فيقومان على سطح كثير الزوايا متجهة نحو القاعة المربعة وفي كل زاوية من زاويتي نصف القبة كوّة داخلة مقنطرة بـ ٤٥ درجة وبينهما كوّة صماء تقع فوق الباب ومن فوق ذلك نصف القبة الحسن الشكل البارع البناء . اما سمك حيطانهما — من الارض حتى نصف الحائط — فقريب من ٤٥ سنتيمتراً (١٩ + ٢٦ سنتيمتراً ، ومن منتصف الحائط الى فوق يأخذ الحائط في الرقة حتى يصبح ٢٦ سنتيمتراً فقط وانما صنع هذا بيد ليسنى له ان يعاشي سمك قوس نصف القبة . واما القبة فيظهر انها كانت مبنية على هذا النمط المعين الذي رأيناه في بناء نصفي القبتين ، وينبغي ان يلاحظ ان براعة البناء قد تجلت في القسم الذي يصل نصفي القبتين بالقبة العظمى فقد راعى في ذلك اموراً فنية جد دقيقة [1] . وحيطان القبة والغرفتين وبقية الحيطان مكسوة بقشرة رقيقة من الجص الابيض غطت الحجارة الصغيرة المختلفة التي بني بها البناء

﴿ نقوشها وزخارفها ﴾ : زخارف القبة ونقوشها محدودة جداً . واذا صرفنا النظر عن البراعة في بناء نصفي القبتين والكوى والاطارات الجصية البديعة التي تحيط بالشبابيك والمحراب ، لم نجد شيئاً يذكر سوى الزخارف الكتابية وهي زخارف كتابية كوفية مخطوطة بالصبغ الازرق المائل الى السواد بقاعدة فنية عجيبة في هندستها وقد نشرت في كتاب Les Monuments Ayyoubide وهي :

« بسم الله الرحمن الرحيم إن الله وملائكتهُ يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً صدق الله العظيم » . ويظهر ان اسم الطواويس والطاووسية قد جاء هذه القبة من رؤوس « الالفات » التي تشبه ذيول الطواويس

﴿ مزاياها وخصائصها الفنية ﴾ : كان لهذا المعهد مزاياه الفنية الكثيرة — فضلاً عن قيمته التاريخية — لانه أقدم أثر اسلامي في دمشق ولانهُ الأثر الوحيد الذي يوجد من العهد السلجوقي ولانهُ يمثل لنا نوعاً من طراز البناء السوري الاسلامي الذي يمتاز بطابع خاص ، وليت دمشق كانت تحوي آثاراً أخرى ترجع الى تلك الفترة حتى نستطيع أن نتبين شيئاً

(١) انظر كتاب Les Monuments ص ٢ وما بعدها

واضحاً من المزايا والخصائص الفنية للبناء السوري الاسلامي في العصر السلجوقي ، ولكن إن لم يبق شيء من تلك الحقبة فان في الآثار التي جاءت من بعدها بقليل — كآثار نور الدين — نوراً يضيء لنا السبيل ويبين لنا شيئاً من طرز البناء السوري وزخرفته في العصر السلجوقي

يقول الاستاذان سوفاجة وايكوشار « إن تعيين مزايا هذا المعهد العمراني عسير جداً لأمرين (اولهما) تداعي البناء تداعياً واضحاً يمنع تبيُّن تلك المزايا (وثانيهما) ان الثروة الاسلامية في الفن المعماري في الشرق الاسلامي لما تزل معالمها غير واضحة لنقص كثير من النواحي الفنية ولعدم الاتفاق على الخطوط التي تبين مزايا كل قطر اسلامي وخصائصه التي يميزه عن الاقطار الاخرى ولكن مهما يكن من شيء فان قبة صفوة الملك التي أثرت في قباب بلبيت بعدها — كقبة البيمارستان النوري وقبة التربة والمدرسة النورية — هي من نمط القباب للعراقية والفارسية وليس في هذا شيء من الغرابة فان السلاجقة جاءوا الشام من تلك المناطق الشرقية. ثم ان هذا الدليل يقوى ويشتد اذا عرفنا ان هذا النوع من القباب المخروطية ذات القباب النصفية في جانبيها ، نجده في مدخل البيمارستان النوري وقد بني بعد قبة صفوة الملك بنحو نصف قرن ، ويستنتجان من هذا ان القبة التي كانت فوق قبة صفوة الملك كانت من تلك القباب المخروطية ذات النخاريب de forme conique chargée d'alveoles

وكذلك ينبغي أن يُفتش في العراق عن أصل القبتين النصفيتين الواقعتين الى جانبي القبة العظمى ، فليس من شك في أن هذا نمط عراقي وانهُ متأثر بالقباب الفارسية القديمة (١) ثم ان هذا النوع من الآجر الذي بنيت به القبة وحيطانها هو آجر عراقي الأصل ، وليس من شك في انهُ جاء الشام من العراق كما جاء الشام من العراق كثير من ضروب الحضارة والعلم والفن . ثم ان نمط بناء أقواس قبة صفوة الملك هو نمط عراقي لأنها أقواس ذات فلقتين (lobé) وهذا النمط موجود بكثرة في قصر الأخيضر العراقي وفي جامعه (٢)

أما الزخارف الكتابية فانها من نمط كتابات بني سلجوق وبني بوري في الشام ولكنها تمت بصلات قوية الى الكتابات الشرقية وخصوصاً في طريقة كتابة « الالفات » وزخارفها (٣)

والخلاصة ان هذا المعهد يبين لنا كثيراً مما أخذه الفن الاسلامي السوري من الشرق كما انهُ يبين لنا ان الاثر السوري الوحيد فيه هو تلك القطعة الحجرية السوداء التي كان النهال البوريون يقفلون بها الاقواس وهذا ما نجده في قفل قوس باب قبة صفوة الملك وما بعدها وقد بقي هذا الاثر في البناء السوري على صور متعددة وخصوصاً في عصر المماليك ولعل السر في ذلك هو وجود الحجارة السود الجيلة في « الكسوة » بالقرب من دمشق

---

(١) انظر كتاب Les Monuments Arqoudides ص ١١ والملاحظة رقم ٢٠ و٢٧ من الصفحة نفسها (٢) أنظر ٢١ من Bell, Palace and Mosque at Ukhaidir

(٣) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة « Arabesque »